

القسم في القرآن

القسم : ضرب من ضروب التوكيد والتوثيق يؤتى به لتنقية الخبر وتحقيقه ، ومعلوم ان القراءت الکريم جاء على اسلوب کلام العرب ومناجي خطابهم ، ولذلك جاء فيه اقسام متنوعة في مواضع شتى ، لتوکيد ما تفضي الحال بتوکيده من الأخبار ، لتقريرها في النقوس ، وثبتتها في الاذهان . وقد جاء القسم فيه على ضروب شتى : فمن القسم بذاته تعالى وصفاته الى القسم بأظهر ما يقع عليه الحس ، او يدركه العقل ، من نماذج البدائع الكونية ، الدالة على عظمته المبدع ، وبالغ حكمته ، فأقسم بالسماء وما بناتها ، وبالشمس والقمر ، وسائل السيارات ، والثوابت ، وبالليل والنهار ، والصبح والضحى والنهر ، وبالعصر ، والليالي العشر ، والشفع والوتر وبالارض وبحارها وجبارها ، والتين والزيتون والبلد الامين ، والبيت المعمور ، وبالرياح المرسلات والشاريات الناشرات والسحب والأمطار وبالنفس وما سواها ، وبالوالد وما ولد ، وبحياة الرسول الکريم ، وبالقراءات العظيم ، وبالیوم الموعود ، وبالقوى الروحانية الصالحة ، وبالقلم وما يسطرون ، وبما يبصرون وما لا يبصرون . أما الامور المقسم عليها فلا تكاد تخرج عن اصول اربعه :

- ١ - ثبیت اساس التوحید وترصینه .
- ٢ - تقریر أمر الرسالة والاشارة بصدق صاحبها .
- ٣ - البرهنة على الحياة الأخرى وما يتصل بها من حساب فثواب او عقاب .
- ٤ - ایضاح بعض التصرفات البشرية في هذه الحياة .

وهذه كما تراها امس الدين واراکینه ، وقد تكلفت التفاسير بایضاح المقاصد المختلفة في هذا الباب : كما ان بعض الاعلام افرده بالتألیف . وقد كتبت - ابان قیامی بتدریس التفسیر في جامعة آکل الیت - رأیت ان اخض زبدة ما وفدت



عليه من كلام الاولين ^٦ في رسالة خاصة . مع اضافة ما عن لي من النقد والتحليل
بعض تلك الآراء .

وابرز ما عنيت به في رسالتي تلك البحث عن المناسبات بين المقسم به والمقسم عليه ،
ما لم اوفق للوقوف على الكثير منه في كلام الأسلاف عليهم الرحمة .

ولا يخفى ان هذا النوع من التنااسب يرفع من قدر الكلام ^٧ ويزيد في
روائه وبهائه . ولما كانت الانظار تتفاوت فيه والافكار تختلف ، رأيت ان انقل
للقراء الكرام نماذج مما جاء في تلك الرسالة على سبيل الايجاز ، فمن ذلك قوله :
(والنجم اذا هوى . ما خل صاحبكم وما غوى ٠٠٠) اقسم بالكون كمنير الذي
لا يصل السبيل ^٨ وبه يهتدى السارون في ظمات البر والبحر . ان النبي الكريم على
اهدى السبيل واصدحها . ومعلوم ان العرب تضرب الامثال بهداية النجم والاهداء
به . يقولون : فلان اهدى من النجم . ولا يصل حتى يصل النجم (وبالنجم هم يهتدون)
فالمتناسبة بين المقسم به وهو النجم عند اخخاره في سيره على محيط دائرةه ^٩ والمقسم
عليه وهو كون الرسول على انبعاج الطرق واقومها - ظاهرة جلية .

و قريب من هذا قوله : (فلا اقسم ب الواقع النجم ، و انه لقسم لو تعلمون عظيم
انه لقرآن كريم ٠٠٠) .

فالنجم من اعلام الاهداء في الماديات ، والقرآن علم المداية في المعنويات ^{١٠} كما
ان النجم يضرب به المثل في الرفعة وعلو المنزلة ، وكذلك القرآن فانه في المكانة
التي لا تسامى ^{١١} و مواقع النجموم : مجازاتها في دوائرها ، او مابينها من الابعاد المتناسبة .
ويقرب من هذا قوله : (فلا اقسم بالخلنس الجوار الكنس . والليل اذا عسعس
والصبح اذا تنفس . انه لقول رسول كريم) فانه اقسم بالدراري التي نراها ونخن
على الارض ، تجري مع الشمس ، ثم نراها كأنها راجعة حتى تخفي في ضوء
الشمس ^{١٢} واردف ذلك بالليل عند ادبارة ^{١٣} والصبح عند اقباله - على ان القرآن
وحبي ينقل بواسطة ملك شريف والوحى الالهي بثابة النور يستضاء به لمعرفة مالا

تستقل العقول بادراكه (واتزلنا اليكم نوراً مبيناً) فالقسم بالنيرات ، على اثبات النور ، من المناسبة بمكان . وعلوم ان الوحي يأتي حيناً دون حين ، وعند ظهوره تنجذب امامه دياجبر الضلاله في المعنويات ، وكذلك النيرات في الماديات . والواقع ان ما بتلقاه الرسل من الوحي يتداوله اتباعهم على حقيقته حيناً من الدهر ، ثم يأخذون بالانحراف عنه شيئاً فشيئاً ، حتى تزامن الشقة بينهم وبين الاصل ، فيرسل الله رسولـاً يوحـي اليـه ماـبه صـلاح الفـاسـد وـقـوـيمـ المـائـل ، وـتـجـدـيدـ الدـاثـر ، فيـتـلقـاهـ اـتـبـاعـهـ عـنـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ . ثـمـ — معـ الزـمـنـ — يـأخذـونـ بـالـابـتـعـادـ عـنـهـ إـلـىـ اـنـ تـفـضـيـ الـارـادـةـ الـإـلهـيـةـ بـارـسـالـ رـسـولـ يـعـيدـ اـمـرـ الـاصـلاحـ إـلـىـ نـصـابـهـ ، مـعـ زـيـادـةـ مـاـبـقـيـ الـزـمـانـ بـزـيـادـتـهـ ! وـهـكـذـاـ . وـبـهـذـاـ تـجـلـيـ الـمـنـاسـبـةـ بـأـجـلـ مـظـاهـرـهـ بـيـنـ الـوـحـيـ وـالـنـيرـاتـ الـيـنـيـةـ الـتـيـ تـظـهـرـ حـيـنـاًـ فـيـهـتـدـيـ بـهـاـ الـمـهـدوـنـ ، ثـمـ تـخـفـيـ حـيـنـاًـ ، ثـمـ تـظـهـرـ وـهـكـذـاـ كـاـنـ تـضـحـيـ الـمـنـاسـبـةـ بـيـنـ الـوـحـيـ وـاقـبـالـ النـهـارـ ، لـأـنـ هـذـاـ لـلـلـابـصـارـ ، وـذـلـكـ لـلـبـصـارـ (كتاب أـنـزلـنـاهـ إـلـيـكـ لـتـخـرـجـ النـاسـ مـنـ الـظـلـمـاتـ إـلـىـ النـورـ) .

فـاـنـ قـلـتـ : اـذـاـ كـانـ مـنـ دـيـدـنـ اـتـبـاعـ الرـسـلـ — اـذـاـ طـالـ عـلـيـهـمـ الـامـدـ — الـانـحرـافـ عنـ الـجـادـةـ وـسـلـوكـ بـنـيـاتـ الـطـرـقـ ؟ فـمـنـ الـفـسـرـوـيـ الـاسـتـمـارـ عـلـىـ اـرـسـالـ الرـسـلـ ، فـكـيـفـ نـوـفـقـ هـذـاـ مـعـ القـوـلـ بـأـنـ مـحـمـداًـ (صـ) خـاتـمـ الـبـيـنـ ، وـآخـرـ الـمـرـسـلـينـ ؟ قـلـنـاـ : اـنـ مـاـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهـ كـانـ وـالـبـشـرـيـةـ لـمـ تـبـلـغـ مـنـ الرـشـدـ مـكـانـاًـ عـلـيـاًـ ، أـمـاـ الـبـعـثـةـ الـمـحـمـدـيـةـ فـقـدـ جـاءـتـ عـلـىـ حـيـنـ اـرـتـقـعـتـ مـكـانـةـ الـعـقـلـ الـاـنـسـانـيـ ، وـاصـبـحـ قـادـرـاًـ عـلـىـ القـبـضـ عـلـىـ زـمـامـ كـثـيرـ مـنـ شـوـفـ الـحـيـاةـ ، وـلـذـلـكـ عـقـدـ لـهـ الـقـرـآنـ الـحـكـيمـ رـاـيـةـ الـزـعـامـةـ لـيـسـيرـ فـيـ نـورـهـ إـلـىـ حـيـثـ الـكـمالـ الـاـنـسـانـيـ (وـالـعـلـمـ وـرـثـةـ الـأـنـبـيـاءـ) —

وقـالـ : (نـ وـالـقـلمـ وـمـاـ يـسـطـرـوـنـ . مـاـ اـنـتـ بـنـعـمـةـ رـبـكـ بـجـنـونـ ٠٠٠) كـانـ الـمـشـرـكـونـ يـقـولـونـ لـلـرـسـولـ الـأـمـيـنـ : (يـأـيـهـاـ الـذـيـ نـزـلـ عـلـيـهـ الذـكـرـ اـنـكـ لـجـنـونـ) بـخـاءـ الـجـوابـ بـالـسـلـبـ الـمـؤـكـدـ ، فـأـقـسـمـ بـأـبـسـطـ عـنـاصـرـ الـقـوـلـ ، وـبـأـخـصـ أـدـوـاتـ الـعـلـمـ ،

وبالعلم نفسه ، على تزييه النبي الكريم عمـا رمـوه به زوراً وبهتاناً ، فخروف الهمجاء أبسط عناصر القول ، والقلم من اوائل أدوات العلم ، ثم العلم نفسه . كل ذلك من خصائص الانسـان العـاقل ، فالمـناسبـة بين المـقـسمـ به والمـقـسمـ عليه اـجلـ من ان تـحـتـاجـ الى جـلاءـ .

وقـالـ : (والـضـحـىـ والـلـيـلـ اـذـا سـجـىـ . ما وـدـعـكـ رـبـكـ وـمـا قـلـىـ . . .) اـقـسـمـ بالـضـوءـ فيـ شـبـابـ النـهـارـ ، وـبـالـظـلـامـ عـنـدـمـا يـضـرـبـ عـلـىـ الـارـضـ بـجـراـنـهـ اـنـهـ لـمـ يـهـمـ اـمـرـكـ اـئـمـهـ الرـسـوـلـ وـلـمـ يـغـضـبـ . جـاءـ هـذـاـ القـسـمـ عـلـىـ اـثـرـ تـخـلـفـ الـوـحـيـ عـنـ الرـسـوـلـ الـكـرـيمـ ، بـضـعـةـ عـشـرـ يـوـمـاًـ ، فـاشـتـدـ حـزـنـهـ (عـلـيـهـ السـلـامـ) وـانـدـفـعـ اـعـدـاؤـهـ بـأـرـاجـيفـهـمـ فـقـالـوـاـ : « اـنـ رـبـهـ وـدـعـهـ وـقـلـاهـ » وـمـنـ هـنـاـ نـتـضـحـ الـمـنـاسـبـةـ بـيـنـ المـقـسمـ بـهـ وـالمـقـسمـ عـلـيـهـ ، فـالـصـلـةـ بـيـنـ الصـيـاءـ وـالـوـحـيـ وـثـيقـةـ ، بـقـدـرـ وـثـوقـ الـصـلـةـ بـيـنـ الـظـلـامـ وـاـنـقـطـاعـ الـوـحـيـ ، وـفـيـ اـشـارةـ اـلـىـ اـنـ الـوـحـيـ وـعـدـمـهـ يـتـعـاقـبـانـ كـتـعـاقـبـ الـلـيـلـ وـالـنـهـارـ ، فـمـنـ كـانـ فـيـ الـلـيـلـ لـاـ يـأـسـ مـنـ قـدـومـ الـنـهـارـ ، وـمـنـ كـانـ فـيـ الـنـهـارـ لـاـ يـتـرـدـدـ فـيـ حـيـ الـلـيـلـ . وـفـيـ هـذـاـ تـسـلـيـةـ للـرـسـوـلـ (صـ) وـتـبـكـيـتـ لـلـرـجـفـيـنـ مـنـ اـعـدـائـهـ .

وقـالـ : (وـالـذـارـيـاتـ ذـرـواـ ، فـالـحـامـلـاتـ وـقـرـأـ ، فـالـمـقـسـمـاتـ اـمـرـأـ ، اـنـ مـا توـعدـونـ لـصـادـقـ ، وـانـ الدـيـنـ لـوـاقـعـ . . .) اـقـسـمـ بـالـرـيحـ الـتـيـ تـذـرـوـ الـبـخـارـ فـيـنـقـدـ سـحـابـاًـ ، ثـمـ تـحـمـلـهـ فـتـجـريـ بـهـ فـيـ اـجـواـزـ الـفـضـاءـ ، وـتـوـزـعـهـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ الـبـقـاعـ – عـلـىـ صـدـقـ الـمـوـعـودـ مـنـ الـبـعـثـ وـالـنـشـورـ وـالـحـسـابـ فـالـثـوابـ اوـ الـعـقـابـ .

وـفـيـ هـذـاـ تـمـثـيلـ لـلـبـدـءـ وـالـعـودـ ، فـقـطـرـةـ الـمـاءـ بـعـدـ اـنـ تـفـرـقـ ذـرـاتـ دـقـيقـةـ ، وـتـبـعـثـرـ فـيـ مـتـابـهـ الـفـضـاءـ ، تـرـجـعـ اـلـىـ سـيرـتـهاـ الـاـوـلـىـ مـنـ جـدـيدـ فـتـتـحدـرـ اـلـىـ اـنـهـارـهـ ، فـبـخـارـهـ ، وـاـنـ طـالـ عـلـيـهـ الزـمـنـ ، وـكـذـلـكـ حـالـ الـاـنـسـانـ (كـمـ بـدـأـكـ تـعـودـونـ) فـالـمـنـاسـبـةـ ظـاهـرـةـ .

وـمـثـلـهـ قـوـلـهـ (وـالـمـرـسـلـاتـ عـرـفـاًـ ، فـالـعـاصـفـاتـ عـصـفـاًـ ، وـالـنـاـشـرـاتـ نـشـرـاًـ ، فـالـفـارـقـاتـ فـرـقـاًـ ، فـالـمـلـقـيـاتـ ذـكـراًـ ، عـذـراًـ اوـ نـذـراًـ ، اـنـ مـا توـعدـونـ لـوـاقـعـ . . .) فـالـمـرـسـلـاتـ

الرياح الطيبة والعرف التابع والعاصفات الشديدة والناشرات الرياح التي تثير ذرات الماء فتشيرها في الفضاء (يرسل الرياح فتشير سحاباً فيسقه في السماء) والفارقـات : المـسمـات . والـريـاح وـاسـطـة يـسـمـدـهـاـ الـانـسـانـ كـثـيرـاًـ مـنـ الـعـلـمـاتـ الجوـيـةـ ،ـ فـهـيـ الـمـقـيـاتـ ذـكـرـاـ ايـ عـلـماـ ،ـ فـالـرـيـاحـ هـيـ الـتـيـ تـبـشـرـ بـالـمـطـرـ قـبـلـ زـوـلـهـ (ـوـهـوـ النـذـيـ يـرـسـلـ الـرـيـاحـ بـشـراـ بـيـنـ يـدـيـ رـحـمـتـهـ)ـ ،ـ كـاـنـذـرـ بـكـثـيرـ مـنـ الـعـوـارـضـ الجوـيـةـ ،ـ فـالـعـلـمـاتـ الـمـسـمـدةـ مـنـ خـواـصـ الـرـيـاحـ مـنـهـ ماـ يـشـرـ باـخـيرـ وـمـنـهـ ماـ يـنـذـرـ باـشـرـ (ـعـذـرـاـ اوـ نـذـرـاـ)ـ .

وجواب القسم قوله (أنا توعدون لواقع) فالمناسبة ظاهرة على ما ألمعنا اليه آنفاً . ومن هنا نعلم ضعف القول المشهور من ان المراد بالرسلات هنا طوائف الملائكة ، يرسلهن الله تعالى بأوصره فيعصفن في مشين عصف الرياح الشديدة ؟ وبطوائف أخرى تنزل بالوحى فتشير الشرائع وتحيي بها النفوس الميتة ، وبذلك تلقى على المرسلين علماً يكون عذراً لمحقين او نذراً لبيطرين . وهذا القول - على شهادة - يأبه اسلوب العربية ، اذ لو اريد هنا الملائكة جاءت الصفات مجموعة جمع الذكور العقلاء كما هو المعروف في العربية والمعهود في القرآن نفسه . قال : (وترى الملائكة حافين) ولم يقل حافات . وقال : (الملائكة المقربون) ولم يقل المقربات . وقال : (والملائكة باسطوا ايديهم) ولم يقل باسطات ايديها ، فلو كان المراد بالرسلات الملائكة جاء بصيغة المرسلين ؟ وأما التأويل المشهور وهو ان المراد طوائف الملائكة فتكلف لا داعي له ، زيادة على ما فيه من ضياع لل المناسبة التي اشرنا اليها .

طه الروبي

مختصر